

أثر الثقافة الإسلامية

في الغرب

للاستاذ الكبير عبد الواحد يحيى

إن كثيرا من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه عن الحضارة العربية في القرون الماضية . بل ربما لم يدركوا منهما شيئا مطلقا . وذلك لأن الحقائق التي تلقى إليهم حقائق مشوهة حظها من الصحة قليل . فأنها تبالغ كل المبالغة في الخط من شأن الثقافة الإسلامية والتقليل من قدر المدينة العربية ، كلما أتاحت الظروف لأصحابها ذلك .

و يلاحظ أن دراسة التاريخ في المعاهد الغربية لا توضح هذا التأثير بل إن الحقائق تناولتها يد التحوير والتحريف قصدا في كثير من الحوادث العظيمة الشأن الجليلة الخطر .

مثال ذلك ماهوشائع معروف من أن أسبانيا ظلت تحت الحكم الإسلامي عدة قرون ، بينما لا يذكر التاريخ الغربى قط ، أن صقلية والجزء الجنوبى الحالى لفرنسا كانا تحت الحكم الإسلامى أيضا ، وربما عزا البعض هذا الأهمال من المؤرخين إلى تعصبهم الدينى ، ولكن ماهى حجة المؤرخين المعاصرين - وغالبهم لادينى - فى موافقتهم أسلافهم فى قلب الحقائق ؟

لهذا ينبغى أن ندرك مقدار زهو الغربيين وكبريائهم ، مما منعهم عن إدراك الحقائق الصحيحة ، ومقدار ما هم مدينون به للشرق . والأغرب من ذلك كله أنه بينما يعتبر الأوريون أنفسهم الورثة المباشرين للمدينة اليونانية القديمة فإن الحق يدحض زعمهم هذا . إذ أن الواقع المعروف من التاريخ نفسه ، يثبت لنا أن علوم اليونان وفلسفتهم لم تنتقل إلى الأوربيين إلا بواسطة المسلمين

وبعبارة أخرى لم تصل المخلفات العقلية لليونانيين إلى الغرب ، إلا بعد أن درسها الشرق ، ولولا علماء الإسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون جاهلين بتلك العلوم زمانا طويلا . بل ربما لم يدركوها كلية

وينبغي أن نلاحظ أننا نبحث هنا عن مقدار تأثير الحضارة الإسلامية لا العربية فحسب ، كما يختلط على البعض أحيانا ، وذلك لأن معظم من حاولوا نقل هذه الثقافة الإسلامية لم يكونوا من العرب الخالص ، وإذا كانت لغتهم عربية فإن ذلك ناتج عن تأثيرهم بدينهم الإسلامي . وما دما قد ذكرنا اللغة العربية فأنا نلاحظ دليلا واضحا يثبت لنا انتقال المؤثرات الإسلامية في الغرب وهو تلك الكلمات العربية الأصل والمنبت التي تستعمل تقريبا في كل اللغات الأوربية ، بل وما زالت تستعمل حتى وقتنا هذا ، على أن معظم الغربيين الذين يستعملونها يجهلون حقيقة مصدرها كل الجهل . وبما أن الكلمات هي التي تستعمل لنقل الأفكار ، وإظهار ما تكنه النفوس ، فإن من السهل علينا جدا أن نستنتج انتقال تلك الأفكار والآراء الإسلامية نفسها .

وفي الحق أن تأثير الحضارة الإسلامية قد تناول لدرجة بعيدة وبشكل محسوس ، كل العلوم ، والفنون ، والفلسفة ، وغير ذلك ، وقد كانت بلاد الأسبان مركز الوسط الهام الذي انتشرت منه تلك الحضارة .

وليس غرضنا الآن أن نفحص كل هذه الأنواع بالتفصيل ، ونرى مقدار ما خلفته الثقافة الإسلامية فيها ، ولكننا نركز بحثنا في بعض نقط نعتقد أنها من الأهمية بمكان . وإن قل من يدركها في وقتنا هذا .

أما عن العلوم فمن السهل أن نفرق بين العلوم الطبيعية ، والعلوم الرياضية فأما عن الأولى فأنا نعلم علم اليقين أنها انتقلت بكلياتها وجزئياتها إلى أوروبا عن طريق الحضارة الإسلامية مصبوغة بالصيغة الإسلامية تماما : فالكيمياء احتفظت دائما باسمها العربي الذي يرجع أصله إلى مصر القديمة والذي كان له معنى من أعمق المعاني التي لم يعرفها الكيميائيون الحديثون حقيقة . ولنضرب

مثلا آخر ، ذلك علم الفلك فأن أكثر اصطلاحاته الخاصة ما تزال محتفظة في كل اللغات الاوربية بأصلها العربي كما أن كثيرا من النجوم ما يزال علماء الفلك في كل الأمم يطلقون عليها أسماءها العربية . وهذا يرجع إلى أن مؤلفات الفلكيين اليونانيين القدماء ، مثل بطليموس الأسكندرية ، كانت ، معروفة في التراجم العربية ومجتمعة مع المؤلفات الإسلامية . ومن السهل جدا أن نوضح أن كثيرا من المعارف الجغرافية الخاصة بالمناطق السحيقة في آسيا وأفريقيا عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيرا من الأقطار وحملوا معهم معلومات جمّة

أما من ناحية الاختراعات — وهي تابعة للعلوم الطبيعية — فقد انتقلت أيضا بنفس الطريق أى بواسطة المسلمين ، وما تزال قصة الساعة المائية التي أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى الأميراطور شارلمان عالقة بالآذهان ثابتة الوقائع . أما الرياضيات فيجب أن نعيدها التفاتا خاصا ، وذلك لأهميتها في هذا

البحث . فأن ميدانها الواسع لا نرى فيه علوم اليونان فحسب ، بل نرى فيه أكبر الأثر للثقافة الإسلامية ، مضافا إليها علوم الهند أيضا . أما اليونانيون فقد بلغوا درجة الكمال في الهندسة ، وعلم الأرقام ، ويلاحظ أن الأخير يرتبط دائما مع الأول في الأشكال الهندسية المناسبة ، وهذا التفوق الذي كان للهندسة يظهر لنا جليا في الجملة التي قالها أفلاطون والتي ذكرت في بحثنا السابق في الجزء الأول من هذه المجلة ولكن يوجد علم آخر من الرياضيات يتبع علم الأرقام ولكنه لم يكن معروفا — كالعلوم الأخرى — في اللغات الاوربية بالاسم اليوناني لانه لم يكن معروفا بين اليونانيين القدماء . هذا هو علم الجبر الذي كان مصدره الأول الهند والذي يسهل علينا من اسمه العربي أن نعرف طريق انتقاله إلى الغرب حقيقة أخرى حان حين ذكرها ولو أنها قليلة الأهمية ، ولكنها تدل أيضا على ما قدمنا : وهي أنه من الشائع في كل مكان أن الأرقام التي يستعملها الأوربيون هي نفس الأرقام التي استعملها العرب ولو أن مصدرها الأول هو الهند ، لأن علامات العد التي كان العرب يستعملونها قديما ما هي إلا حروف الهجاء نفسها .

وإذا انتقلنا من بحث العلوم إلى بحث الفنون فأتينا نلاحظ أن كثيرا من المعاني التي جادت بها قرائح الكتاب والشعراء المسلمين في الأدب والشعر، قد أخذت واستعملت في الأدب الغربي، بل أكثر من هذا فإن بعض كتاب الغرب وشعرائه قد قلدوا تمام التقليد بعض كتاب المسلمين وشعرائهم. وكذلك نلاحظ أن أثر الثقافة الإسلامية واضح كل الوضوح وبصفة خاصة في فن البناء، وذلك في العصور الوسطى: فمن ذلك شكل القوس المعقود الذي صار متميزا بنفسه حتى صار يدل على طريقة خاصة للبناء كان يستعمل فيها وقد كان مصدره فن البناء الإسلامي ولو أن كثيرا من النظريات الخيالية اخترعت لمخالفة هذه الحقيقة، ومما هدم هذه النظريات وجود رواية يتناولها دائما البناءون أنفسهم وهي تثبت انتقال هذه الطريقة من الشرق. وقد كان لهذه الحقيقة صفة سرية جعلت لغتهم معنى رمزيا، فكانت ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم الأرقام، وقد نسب هذا العلم في مصدره الأول لهؤلاء الذين بنوا هيكل سيدنا سليمان. ومهما يكن من أمر هذا المصدر البعيد فلا يمكن بحال ما - أن يكون انتقاله إلى أوروبا إلا بواسطة العالم الإسلامي، ومما يحسن ذكره أن هؤلاء المعماريين - وقد كانوا هيئات متحدة لها شعائر خاصة - كانوا يعتبرون أنفسهم كأبنائهم أجنبية في الغرب حتى في مساقط رؤوسهم. وقد ظلت هذه التسمية حتى الآن. على أن هذه الأمور صارت غير معروفة إلا للقليلين جدا.

في هذه النظرة العامة، ينبغي أن نذكر بصفة خاصة نوعا آخر هو الفلسفة فقد بلغ التأثير الإسلامي في القرون الوسطى مبلغا عظيما لم يستطع أحد خصوم الشرق تعصبا أن ينكر قوته. وهذا صحيح فإن أوروبا لم يكن فيها من وسيلة أخرى لمعرفة الفلسفة اليونانية في ذلك الزمن، وذلك لأن التراجم اللاتينية لأفلاطون وأرسطو - وهي التي استعملت حينئذ - لم تنقل أو تترجم من الأصل اليوناني مباشرة بل أخذت من الترجمة العربية السالفة وأضافوا إليها ما كتبه المعاصرون المسلمون في الفلسفة الإسلامية. ومن أولئك المعاصرين: ابن رشد وابن سينا وغيرهما

والفلسفة التي كانت معروفة في ذلك الوقت باسم « الفلسفة المدرسية » كانت تتميز بها الفلسفة الإسلامية واليهودية والمسيحية ، ولكن من الإسلامية استمد النوعان الآخران مصدرهما . بل إن اليهودية وهي التي ازدهرت في أسبانيا كانت لغتها عربية وذلك ثابت ويرى في المؤلفات الهامة لموسى بن ميمون وعنه نقل فيلسوف يهودى آخر — بعد قرون عديدة — كثيرا من فلسفته الخاصة ذلك هو (سبينوزا)

وليس من الضروري أن نصر على بحث أشياء معلومة لكل من درس شيئا من تاريخ الفكر . بل يحسن أن نبحت أخيرا في أشياء أخرى من نوع مختلف لا يعرفه معظم الحديثين ، خصوصا في الغرب . بل لا يكاد يكون لأحد ما أية فكرة ذات أهمية عنه ، ولكن من وجهة نظرنا نرى له أهمية كبرى أكثر من كل المعارف الخارجية التي تحتويها العلوم والفلسفة . وما نقصده بهذا هو التصوف وما يتصل به أو يعتمد عليه من أنواع المعرفة الأخرى الثانوية التي تختلف عن تلك العلوم التي يدرسها الحديثون كل الاختلاف

وليس للغرب في وقتنا هذا شيء من أمثال تلك العلوم على حقيقتها ، بل أكثر من هذا أن الغرب لا يعرف أيضا من المعارف الحققة كالتصوف أو ما يماثله شيئا مطلقا . على أن هذه الحال لم تكن هي الحال في القرون الوسطى . وهذه المعارف لها أيضا أثرها الإسلامى البين الواضح بأجلى وضوح في تلك العصور . ومن السهل جدا ملاحظة أثر ذلك في بعض المؤلفات التي تختلف معانيها الحقيقية عن الثمرات الأدبية كل الاختلاف

وقد بدأ هذا النوع يتضح لبعض الأوربيين أنفسهم وذلك خلال دراساتهم لأشعار « دانتي » الإيطالى ، ولكنهم لم يدركوا ماهية طبيعتها الحققة . ومنذ سنين عدة كتب المستشرق الأسباني « دون ميغيل آسين بلاثيوس » كتابا عن المثرات الإسلامية في مؤلفات « دانتي » جاء فيه أن جزءا كبيرا من الرموز والأشارات التي استعملها « دانتي » كان يستعملها قبله بعض المحققين والكتاب

المسلمين وبخاصة سيدي محي الدين بن عربي . ولكن لسوء الحظ نرى أن ملاحظاته لم تعد التخيلات الشعرية ، على أن هناك كتابا آخر أيطالى الجنس هو « لويجي فاللي » الذى توفى حديثا تعمق بعض التعمق فى البحث فذكر أن دانت لم يكن وحده التى استعمل الأشارات المماثلة لما كان مستعملا فى الشعر الصوفى الفارسى والعربى . بل إن كثيرا من الشعراء المعاصرين لدانتى فى مملكته كانوا أعضاء فى اتحاد أو هيئة سرية تسمى « أمناء الحب » وكان دانتى نفسه أحد رؤساء تلك الهيئة

ولما حاول « لويجي فاللي » أن يحل ألغاز لغتهم السرية لم يتمكن من إدراك ما كانت تتميز به تلك الهيئة أو مماثلها من الهيئات التى وجدت فى أوروبا أيام القرون الوسطى . على أن الحق هو أن بعض الشخصيات السرية كانت تستتر خلف تلك الهيئات لتكون مصدرا لإرشاد لها وقد كانت تلك الشخصيات السرية تعرف بأسماء مختلفة من أهمها تلك التسمية « إخوان الوردية والصليب » وليس هؤلاء قواعد مكتوبة يسرون عليها ، كذلك لم يكن لهم اجتماعات معينة وكل ما كانوا يعرفون به هو أنهم وصلوا إلى حالات روحية خاصة ويمكننا أن نصفهم بأنهم صوفيون غريبيون ، أو على الأقل متصوفة فى درجات عالية وقد قيل إن هؤلاء « الأخوان » الذين كانوا يتسترون باللبسة البنائين ورموزهم كانوا يعلمون الكيمياء وعالوما أخرى تماثل ما كان مزدهرا من العلوم فى العالم الإسلامى وفى الحق أنهم كانوا حلقة اتصال بين الشرق والغرب وكانوا على اتصال مباشر بالصوفيين المسلمين وقد كان ذلك الاتصال يستتر وراء رحلات مؤسسهم الخيالى . وليس هذا معروفا فى التاريخ الذى لا يتعمق كثيرا فى البحث ، بل يكتفى فقط بمظهر الحوادث الخارجى مع أن هناك المفتاح الحقيقى الذى يفتح لنا مغاليق كثير من الأشياء ولولاه لا ستمرت دائما غير واضحة بالمرّة وستكلم إن شاء الله عن هذه الأشياء وعن حقيقة معناها فى أبحاث أخرى ؟

عبد الواحد يحيى